جدلية العلاقة بين المنهج العلمي والدراسات الإنسانية المفاهيم والتأثير

د. أحمد عبد الجبار فاضل

الجامعة العراقية / كلية التربية للبنات

الملخص

ويعد أول ظهور للعلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر كمحاولة للتخلص من شمولية الفلسفة لكل تلك العلوم، ولذلك اختصت العلوم الإنسانية بتناول دراسة الذات الإنسانية وأنشطتها في صورها المختلفة، ويتم ذلك عبر عدة علوم مكونة للعلوم الإنسانية هي :

• الدراسات الدينية، علم الآثار، ثقافات الشعوب الإقليمية، الأدب والنقد، علم الاجتماع، الموسيقى، علم الأنثروبولوجيا، دراسات الفلسفة، التاريخ، تاريخ الفن ونظرياته. وتعد علوم اللغة ومنها الادب والنقد، من اكثر العلوم الانسانية تأثرا بظهور المنهج العلمي في الدراسة والبحث . ومن هذا المنطلق يحاول هذا البحث مقاربة هذه القضية الاشكالية، وفق رؤية وصفية تحليلية تاريخية. إن اول مشكل يواجه البحث يتمثل في التضاد الظاهر بين مصطلحي (علوم) و(انسانية)، اذ يحيل مصطلح العلمية على الموضوع والتجريب، على حين يتعلق مصطلح الانسانية بالذات والرؤى العقلية، ومن ثَمَّ كيف يمكن الجمع بينهما في حقل دلالي واحد ؟.

Abstract

The first appearance for the Humanities in the nineteenth century, an attempt to get rid of all of those totalitarian philosophy of science, and therefore singled Humanities to address the humanitarian and self-study activities in different forms, and this is done through several composed Science for the Humanities are:

• Religious Studies, Archaeology, regional cultures of peoples, literature and criticism, sociology, music, anthropology, philosophy studies, history, art history and theories. The linguistics and literature and criticism of them, one of the most affected by the emergence of Humanities scientific method of study and research. From this point of this research it is trying to approach this issue problematic, according to the vision and descriptive analytical historic. The first problem facing search is in apparent contrast between the terms (Science) and (humanitarian), as it refers to the scientific term on the topic and experimentation, while the humanitarian term particular mental visions, and thus how you can combine them into a single semantic field?.

مدخل عام ...

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد، وعلى اله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

خطت الانسانية مراحل هامة في طرق تفكيرها و تفسيرها للظواهر الطبيعية، و التحولات الاجتماعية، و الإبداعات الفردية، حتى وصلت الى العصر الحديث، إذ أصبح يهيمن على المشتغلين بهذه الحقول نوع من التفكير، و التحليل أطلق عليه اسم (المنهج العلمي)، ومن ثَمَّ تقديم العلم على باقي الوسائط المعتمدة لفهم ما يحيط بنا من عوالم، وما يطرأ عليها من تحولات. لقد دخلت أوربا مع القرن التاسع عشر مرحلة النهضة العلمية، انعطف معها التفكير البشري نحو العلمية والتجريبية، بعد أن تطورت هذه العلوم تطورا هائلا كان له نتائجه العلمية الواضحة على المجتمع . ويمكن أن نقرر بوضوح إن هذه الحركة العلمية قد حدثت بفعل ثلاث مرتكزات معرفية متتابعة احدثت الفرق الكبير في النهضة العلمية الحديثة . اول هذه التحولات ما احدثه فرنسيس بيكون (FrancisBacon ت١٦٢٦)[١]، من تغيير في طريقة التحليل البحثية نحو التجريبية والملاحظة الواقعية، اذ وضع في كتابه (الأورغانون) قواعد المنهج التجريبي، ورينيه ديكارت (RenéDescartes ت١٦٥٠)[٢] في وضعه لقواعد المنهج العقلي للعلوم في بحثه (مقال في المنهج)، وبفعل هذين التغيرين المنهجيين في طريقة البحث وقواعد المنهج، ظهرت نظرية داروين (CharlesRobertDarwin ت١٨٨٢)[٣] عن النشوء والارتقاء في علم الاحياء، التي تعد من اكثر النظريات تأثيرا في الفكر الانساني الحديث بمختلف تشكلاته المعرفية .

ويعد أول ظهور للعلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر كمحاولة للتخلص من شمولية الفلسفة لكل تلك العلوم، ولذلك اختصت العلوم الإنسانية بتناول دراسة الذات الإنسانية وأنشطتها في صورها المختلفة، ويتم ذلك عبر عدة علوم مكونة للعلوم الإنسانية هي :

• الدراسات الدينية، علم الآثار، ثقافات الشعوب الإقليمية، الأدب والنقد، علم الاجتماع، الموسيقى، علم الأنثروبولوجيا، دراسات الفلسفة، التاريخ، تاريخ الفن ونظرياته. وتعد علوم اللغة ومنها الادب والنقد، من اكثر العلوم الانسانية تأثرا بظهور المنهج العلمي في الدراسة والبحث . ومن هذا المنطلق يحاول هذا البحث مقاربة هذه القضية الاشكالية، وفق رؤية وصفية تحليلية تاريخية. إن اول مشكل يواجه البحث يتمثل في التضاد الظاهر بين مصطلحي (علوم) و(انسانية)، اذ يحيل مصطلح العلمية على الموضوع والتجريب، على حين يتعلق مصطلح الانسانية بالذات والرؤى العقلية، ومن ثَمَّ كيف يمكن الجمع بينهما في حقل دلالي واحد ؟.

لقد عبرت علوم اللغة ومنها بالتأكيد الادب والنقد مراحل مهمة نحو العلمية، لاسيما بعد محاضرات دي سوسير (FerdinanddeSaussure ت١٩١٣)[٤] التي قلبت التصور اللغوي القديم

القائم على التاريخية، ونقلته الى الوصفية، التي تمثل الوجه الاشد ارتباطا بالعلمية في البحث اللغوي بكل تفرعاته . هذه العلاقة الجدلية بين علوم اللغة، ولاسيما النقد الحديث، والمنهج العلمي، تمثل صلب هيكلية البحث، الذي يحاول توصيف هذه العلاقة الجدلية، وما يتصل بها من مفاهيم تتصل بمفهوم المنهج والمنهج العلمي، ومفهوم العلوم الانسانية وتطورها المعرفي . ولاشك إن هذه القضية قد درست بأشكال متنوعة، وتبنى الدارسون فيها رؤى مختلفة، بين من يؤيد علمية الدراسات الانسانية، وموضوعتها، وبين من يفضل الابقاء على إنسانية هذه الدراسات وبعدها الذاتي الشخصي . ولعل الدراسات النقدية العربية القديمة قد تناولت شيئا من هذا البحث في باب الطبع و الصنعة في الكتابة الشعرية، اذ يمكن وصف اصحاب الطبع انهم ممن ينحو الى أنسنة الشعر والادب، على حين يمثل أصحاب الصنعة منهج العلمية في الكتابة الشعرية .

أسال الله الصواب في القول والعمل، فإن أحسنت فمن عنده، وإن أسأت فمن نفسي المقصرة، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما .

المبحث الاول

الاشكالية والمفهوم

اولا : الاشكالية المنهجية بين العلمي والانساني ...

إن العلوم الإنسانية من مثل علم الاجتماع أو علم النفس أو الأنثروبولوجيا أو الاقتصاد، حديثة النشأة في القرن التاسع عشر، بيد أن الدراسات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية قد وجدت دوما مبثوثة في ثنايا المصنفات الفلسفية، بل إننا إذا تأملنا علما إنسانيا خاصا هو علم التاريخ نجده علما عريقا عراقة علم الرياضيات نفسه، ولكننا نلاحظ أيضا أن علم التاريخ نفسه ورغم عراقته لم يطرح وجوده أية إشكالية منهجية أو أبستمولوجية إلا منذ القرن الثامن عشر، اذ تزامن ذلك مع الميلاد الحديث للعلوم التجريبية التي قدمت نموذجا باهرا للعلمية سواء من حيث دقة المناهج والنتائج أم نجاعتها ؛ لما وفرته من قدرة على التحكم في الظواهر الطبيعية، واعادة صياغة طريقة البحث ومنهج الدراسة في كل مجالات البحث العلمية او الإنسانية [٥]. هكذا سيكون وجود العلوم الإنسانية موسوما منذ البداية بالتوتر بين قطبين، موجودان أصلا في الاصطلاح ذاته (علوم / إنسانية)، إذ يحيل مصطلح علوم على العلوم التجريبية التي تمثل النموذج المثالي للعلمية، في حين يمثل مصطلح (إنسانية) الفلسفة وما يتصل بها من طرق تفكير عقلية مثل المنطق من حيث إنها تتخذ الإنسان موضوعا لها. هل تستطيع العلوم الإنسانية أن تنأى عن الفلسفة ؟ وفي هذه الحالة هل ستسعى إلى التطابق مع العلوم الصرفة ؟ أم إنها ستزاوج بين مناهج الفلسفة ومناهج العلوم الطبيعة ؟ أم ستبدع لنفسها منهجها الخاص بها بحيث يلاءم خصوصية الظواهر الإنسانية ؟ مع التأكيد على إن البحث

العلمي يتحدد من خلال موضوع ومنهج، لذلك يمكننا طرح إشكالية مسألة العلمية في العلوم الإنسانية من زاويتين: زاوية الموضوع وزاوية المنهج: (٦)

أ - إشكالية الموضوع: كيف يمكن للظاهرة الإنسانية أن تغدو موضوعا للعلم أي موضوعا لدراسة منهجية ؟ والحال أنها ظاهرة واعية والدارس والمدروس معا هو الإنسان !

ب - إشكالية المنهج: بعد أن تعين العلوم الإنسانية موضوعها، كيف لها أن تقاربه؟ وهل تستوفي هذه المقاربة شرط العلمية وعن أي شرط نتحدث ؟.

إذا كان النموذج الذي أثبت فائدته وجدواه لمقاربة الظواهر هو نموذج العلوم التجريبية، فهل للعلوم الإنسانية أن تقتبس هذا المنهج، أم إنها مطالبة بالتمرد ضد هذا النموذج العلمي الطبيعي، لتؤسس لنفسها طريقها المنهجي الخاص بها والذي يلائم خصوصية الظواهر الإنسانية ؟.

لقد انفصلت علوم تسمى بالعلوم الإنسانية، مثل علم النفس وعلم الاجتماع، انفصلت منذ بداية القرن التاسع عشر عن الفلسفة، وحاولت دراسة الظواهر الإنسانية بمناهج العلوم التجريبية التي تدرس الظواهر الطبيعية . غير أن اختلاف موضوع العلوم الطبيعية عن موضوع العلوم الإنسانية طرح إشكالين رئيسيين في مجال العلوم الإنسانية، هما إشكال موضعة الظاهرة الإنسانية من جهة، وإشكال المنهج المعتمد في دراستها من جهة أخرى. إن الظاهرة الإنسانية هي ظاهرة معقدة وواعية ومتعددة الأبعاد، كما إنها ظاهرة متغيرة وتتداخل فيها الذات مع الموضوع وهذا ما يطرح إشكال موضعتها، والذي يمكن أن نتساءل بصدده عن إمكانية جعل الظاهرة الإنسانية موضوعا قابلا للدراسة العلمية الدقيقة، كما يطرح إشكال المنهج المعتمد في دراستها. هكذا نجد بعض العلماء الذين انبهروا بالنتائج التي حققتها العلوم الطبيعية، مما دفعهم إلى محاولة تطبيق مناهجها على الظواهر الإنسانية، كما نجد علماء آخرين حاولوا ابتكار مناهج تلائم الظاهرة الإنسانية، تختلف عن المناهج المعتمدة في علوم الطبيعة . فالفريق الأول متمثلا في النزعة الوضعية أساسا، حاول تطبيق منهج التفسير الموضوعي المستلهم من العلوم التجريبية، بينما اعترض الفريق الثاني على إمكانية تطبيق منهج التفسير على الظاهرة الإنسانية واقترح منهجا آخرا يناسب خصوصيتها هو منهج الفهم(٧). انطلاقا من كل هذا يمكن الحديث عن إشكالين رئيسين في هذا المجال هما:

أ- إشكال موضعة الظاهرة الإنسانية: والذي يطرح مدى إمكانية عزل الموضوع عن الذات في مجال الظواهر الإنسانية، ومدى قابلية هذه الأخيرة لكي تصبح موضوعا للدراسة العلمية الموضوعية الدقيقة.

ب- وإشكال المنهج في العلوم الإنسانية: ويتعلق بالبحث عن المنهج المناسب الذي يجب اعتماده في دراسة الظاهرة الإنسانية؛ فهل يتمثل هذا المنهج تفسيرها أم فهمها ؟ هل هو منهج التفسير أم

منهج الفهم ؟ وهل يمكن اتخاذ منهج التفسير السائد في العلوم التجريبية كنموذج للاستلهام والتطبيق في مجال العلوم الإنسانية أم يجب ابتكار مناهج تلائم طبيعة الظواهر الإنسانية ؟.

حينما نتحدث عن موضعة الظاهرة الإنسانية فإن الأمر يتعلق بطموح يتمثل في محاولة جعلها موضوعا قابلا للدراسة العلمية الموضوعية، وحيث إن الموضوع في العلوم الإنسانية هو الذات نفسها ؛ أي إن الذات الدارسة هي الموضوع المدروس أو على الأقل هناك تداخل بينهما، فإن مسألة الموضعة الخاصة بالظاهرة الإنسانية تطرح عدة صعوبات وعوائق ؛ فهل يمكن عزل هذه الظاهرة عن الذات والتعامل معها كموضوع قابل للدراسة العلمية الدقيقة ؟ وما هي الإجراءات والشروط الكفيلة بموضعة الظاهرة الإنسانية ؟ وهل يمكن الحديث عن عوائق تعترض عملية الموضعة هذه ؟.

لقد ارتبط طموح الوصول إلى العلمية في العلوم الإنسانية بسعي الاتجاه الوضعي إلى موضعة الظاهرة الإنسانية وتطبيق منهاج العلوم التجريبية عليها، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى السوسيولوجي الفرنسي (إميل دوركايم E.Durkeim ت ١٩١٧)[٨]، الذي دعا إلى التعامل مع الظواهر الاجتماعية كأشياء، وهذا ما يسمى بتشييء الظاهرة الإنسانية أي إفراغها من محتوى الوعي، لاسيما وأن عالما أنثروبولوجيا مثل كلود ليفي ستراوس (ClaudeLévi–Strauss ت ٢٠٠٩)[٩]، يعد الوعي عدو العلم[١٠]. هكذا فقد حاول دوركايم موضعة الظاهرة الإنسانية وفصلها عن الذات الدارسة، سعيا منه إلى تفسيرها تفسيرا موضوعيا عن طريق استبعاد العوامل الذاتية، والتركيز فقط على العوامل الموضوعية والواقعية القابلة للملاحظة والقياس والتعميم. ولهذا فالظاهرة الاجتماعية حسب دوركايم تتميز بخاصية الخارجية ؛ أي إنها توجد خارج الذات ويمكن ملاحظتها مثل أي موضوع آخر، وهذا ما يسمح بتحقيق العلمية والموضوعية المطلوبة في دراسة الظاهرة الاجتماعية [١١]. لقد عدَ عالم النفس جون بياجي (JeanPiaget ت ١٩٨٠)[١٢]، بأن العلوم الإنسانية لا زالت في بدايتها، وأن طموح الموضعة لا زال لم يتحقق بعد، وهذا ما يتوجب على الباحثين والعلماء في مجال العلوم الإنسانية بذل مجهودات مضاعفة قصد تطوير أدواتهم ومناهجهم قصد تحقيق الدقة والعلمية المنشودة، اذ تعترض علمية الدراسات الانسانية عوائق عدة اهمها [١٣]:

– عدم تشابه الظاهرة الإنسانية مع الظاهرة الطبيعية ؛ إذ أنها ظاهرة معقدة ومتعددة الأبعاد وفريدة من نوعها.

– يتأثر الباحث في العلوم الإنسانية بالموضوع الذي يدرسه لأنه جزء منه، ويصعب عليه أن يدرسه بحياد ونزاهة وموضوعية.

– كما قد يؤثر الباحث في الظاهرة الإنسانية، فيغير من طبيعتها ويفهمها فهما خاصا، مما يجعل النتائج تختلف من باحث لآخر ويجعل إمكانية التعميم متعذرة.

– يتداخل الموضوع في العلوم الإنسانية مع الذات ويصعب الفصل بينهما، وهذا بخلاف العلوم الطبيعية التي يمكن فيها فصل الذات عن الموضوع.

– يتمركز الباحث في العلوم الإنسانية حول ذاته ؛ أي أنه يقدم رؤيته للظاهرة الإنسانية المدروسة انطلاقا مما يحمله في ذاته من مشاعر وأفكار ومعتقدات ترتبط بالتزامه بمواقف فلسفية أو مذاهب إيديولوجية أو عقائدية، وهذا ما يجعل الباحث يسقط تصوراته الذاتية على الظاهرة ويجعل تحقيق الموضوعية مسألة غاية في الصعوبة.

وإذا كان المحور الأول يتناول موضوع العلوم الإنسانية وإشكال موضعته، فإن هذا المحور يتناول مسألة ميتودولوجية (منهجية) تتعلق بمنهج دراسة ذلك الموضوع . فبأي منهج يمكن للعلوم الإنسانية أن تتناول موضوعها ؟ وإذا كان موضوعها هو الظاهرة الإنسانية، وهي ظاهرة فريدة ومتميزة عن الظاهرة الطبيعية، فهل يمكن للعلوم الإنسانية أن تدرس موضوعها باستلهام منهج التفسير السائد في العلوم التجريبية أم إنها مطالبة بابتكار منهج يلائم خصوصية الظاهرة الإنسانية ؟ وهل المنهج الملائم للظاهرة الإنسانية هو منهج التفسير أم منهج الفهم ؟ وما هي المرتكزات والخصائص التي تميز كلا المنهجين ؟.

إن التفسير هو المنهج المفضل في العلوم التجريبية، وهو يتجلى في الكشف عن العلاقات الثابتة التي توجد بين الحوادث والوقائع واستنتاج أن الظواهر المدروسة تنشأ عنها. وقد حققت العلوم الطبيعية نتائج باهرة باعتمادها على منهج التفسير العلمي الذي يرتكز على تقنيات منهجية كالملاحظة والقياس والتجريب، كما يسمح بتكميم النتائج وتعميمها. ولهذا السبب فقد حاولت النزعة الوضعية في مجال العلوم الإنسانية استلهام منهج التفسير من العلوم التجريبية واعتماده كنموذج للتطبيق في مجال الظواهر الإنسانية، رغبة منها في تحقيق الدقة والموضوعية، والابتعاد ما أمكن عن التفسير الميتافيزيقي والمنهج التأملي الذي كان معتمدا في الفلسفة [١٤]. وفي هذا الإطار نجد إميل دوركايم، كأحد ممثلي الاتجاه الوضعي في علم الاجتماع، يعتمد منهج التفسير الموضوعي في دراسته للظواهر الاجتماعية، وذلك بأن دعا إلى تشييئها والتعامل معها كمجرد أشياء خارجية، والعمل على موضعتها وفصلها عن الذات الدارسة [١٥]. ونظرا لخصوصية الظاهرة الإنسانية وتعقدها فقد واجه منهج التفسير عدة عوائق في محاولته لدراستها والإحاطة بها، ومن أهم هذه العوائق هو وجود أسباب باطنية وذاتية ترجع إلى محتوى الوعي، تكون هي المحدد الأساسي لبعض الظواهر الإنسانية إضافة إلى العوامل الموضوعية. وإذا كان منهج التفسير يسمح برصد المحددات الموضوعية، فإن المحددات والعوامل الذاتية تحتاج إلى منهج آخر مغاير هو الذي يسمى بمنهج الفهم. فإذا كان الموضوع في العلوم الطبيعية ماديا ومعزولا عن الذات، فإن الموضوع في العلوم الإنسانية مرتبط بالذات وجزء لا يتجزأ منها، ولهذا يبدو أنه لا يمكن تفسير الظواهر النفسية وإجراء التجربة عليها، بل لا بد من

تفهمها عن طريق منهج الفهم الذي يعتمد الحدس والاستبطان والتأويل. إن الهدف المنهجي للفهم هو إدراك دلالات الأفعال عن طريق ربطها بالمقاصد والنوايا الذاتية لأصحابها والفاعلين لها، ولذلك فهو منهج يعتمد على البداهة والحدس. هكذا يمكننا القول إن فعل العقل في الظواهر الإنسانية يتراوح بين منهجين أساسيين هما: **التفسير**، الذي يستهدف الكشف عن العلاقات الثابتة التي تربط بين الوقائع الإنسانية، **والفهم**، الذي يرمي إلى حدس الإحساس وتأويل الفعل الإنساني للكشف عن معانيه ودلالاته. ولهذا يبدو أنهما منهجان متكاملان لا يمكن الاقتصار على أحدهما دون الآخر في دراسة الظواهر الإنسانية، والرهان الصعب يتمثل في كيفية المزاوجة بينهما على نحو فعال يمكن من فهم حقيقي للظاهرة الإنسانية في أبعادها المختلفة [١٦].

ثانيا : في مفهوم المنهج والمنهج العلمي ...

المنهج في اللغة : الطريق الواضح وكذلك المنهج والمنهاج، وأنهج الطريق أي استبان وصار نهجا واضحا بيّنا، ونهجت الطريق اذا ابنته وأوضحته [١٧]. أما في الاصطلاح فالمنهج يمثل " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيمن على سائر العقل وتحدد عملياته الفكرية حتى يصل إلى نتيجة معلومة " [١٨]. وقد وردت الإشارة إلى المنهج في القران الكريم في موضع واحد عند حديث القرآن عن الكتب السابقة وموقف القرآن منها، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، حيث يقول تعالى : { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (٤٨) سورة المائدة، والمنهاج في هذا الموضع (النظام العملي) ليدل على الطريقة التي يسلكها الناس لتطبيق الشريعة الاسلامية، والتي تنظم حياة الناس، وعلاقتهم بخالقهم، وعلاقة كل منهم بنفسه، وعلاقة كل منهم بالآخرين، ولهذا قرنت الآية الشريعة بالمنهاج، لان الشريعة تمثل الجانب النظري من التعاليم الإلهية، بينما يمثل المنهاج الجانب العملي التنظيمي للتشريعات الإلهية . أما في السنة النبوية فقد جاء المنهاج بمعنى الشيء الواضح الذي ينبغي السير عليه يقول صلى الله عليه وسلم : " تكون النّبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون خلافة على منهاج النّبوة ..."[١٩] أي يسلك الخلفاء مسالك النبي وينهجون نهجه ويسيرون على طريقته .

وقد ارتبط مفهوم المنهج تاريخيا أولا بالمنطق، فأصبح يدل على الوسائل و الإجراءات العقلية طبقا للحدود المنطقية التي تؤدي إلى نتائج معينة، ومن ثم يمكننا القول إن الدلالة الاصطلاحية لمصطلح (منهج) انطلقت من اليونانية، واستمرت في الثقافة الإسلامية، لتصل إلى عصر النهضة، و هي ما تزال محتفظة بالتصورات الصورية طبقا للمنطق الأرسطي بحدوده وطرق استنباطه " فالمنهج في

هذه المرحلة كان يطلق على المنهج العقلي، لأنه يلتزم بحدود الجهاز العقلي ليستخرج النتائج منها"[٢٠]. إلا إن المنهج العقلي بعد عصر النهضة بدأ يسلك نهجا مغايرا يتسم بنوع من الخصوصية خاصة مع (ديكارت) في كتابه (مقال في المنهج) و من ثم فقد اقترن بالتيار العلمي، و هذا التيار لا يحتكم إلى العقل فحسب، و إنما كذلك إلى الواقع ومعطياته وقوانينه، انطلاقا من كون العلم يعد " نشاطا إنسانيا موجها يهدف إلى وصف الظواهر التي يدرسها و يصنفها في أنواع، ولكنه لا يقتصر على هذا الهدف بل يحاول اكتشاف العلاقات بين الظواهر المختلفة"[٢١]، وقد عرفه قاموس أوكسفورد بأنه " ذلك الفرع من الدراسة الذي يتعلق بجسد مترابط من الحقائق الثابتة و المصنفة و التي تحكمها قوانين عامة و تحتوي على طرق و مناهج موثوق بها لاكتشاف الحقائق الجديدة في نطاق هذه الدراسة". وبناء عليه فقد حدد الدارسون أهداف العلم في ثلاثة هي : الفهم، والتنبؤ، والضبط والتحكم، فالفهم يتحدد في كونه ينحو إلى التعرف على علاقة الظاهرة بالظواهر الأخرى التي أدت إلى وقوعها، و فهم الظواهر التي تنتج عنها، أما التنبؤ، فهو الاستنتاج الذي يقوم به الباحث بناء على معرفته السابقة بالظاهرة المدروسة، وهذا الاستنتاج لا يعد صحيحا إلا إذا استطاع إثبات صحته تجريبيا، في حين يرتبط الضبط والتحكم بالهدفين السابقين، و يتحدد في السيطرة على العوامل المتحكمة في الظاهرة [٢٢]. وبذلك فإن المنهج في عصر النهضة اقترن بنمو الفكر العلمي التجريبي، حيث وقع التزاوج بين طرائق العلماء والمنهجيين، فولد ما يسمى (المنهج التجريبي) إلا إنه لم يتم التخلي عن المفهوم الأول، بل صار هناك تعايش بين المفهومين، إذ قد يراد بالمنهج المنظومة المرتبة التي يمكن عن طريقها الوصول إلى نتائج منطقية، و قد يراد به المنهج التجريبي، وقد تعددت مواصفات وشروط وأهداف المنهج العلمي، بتعدد العلوم والظواهر التي تدرسها [٢٣]. وعلى هذا الاساس يعرف المنهج العلمي بأنه " خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها . والمنهج العلمي قوامه الملاحظة والتجربة والموضوعية والدقة والتعبير عن المعطيات، باستخدام لغة الإحصاء أو الرياضيات "[٢٤] . وتختلف المناهج من حقل معرفي إلى آخر، اذ للفلسفة مناهجها، مثلما للأدب والتاريخ و الرياضيات وباقي العلوم مناهجها. فالمنهج العلمي يتطلب شروطا ينبغي على الباحث أن يستجيب لها ومن أهمها الأصالة والجدة والابتكار، وذلك بالكشف عن الجديد سواء كانت هذه الجدة كاملة أم في ناحية من نواحي الموضوع .

المبحث الثاني

المفهوم والتأثير

اولا : مفهوم العلوم الانسانية وتطورها التاريخي ...

إن الظاهرة الإنسانية معقدة جدا لأن عوامل إنتاجها متداخلة ولأن أبعادها تتفاعل فيها المؤثراتُ الثقافية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، فلا يمكن أن نفسر ما أنجزه الإنسان في فترة ما دون

معرفة الشروط التي كانت سائدة في ذلك الوقت، والعوامل التي أثّرت في حدوثها وجعلتها تحدث بهذا الشكل دون غيره، وذلك يعني أن إرادة الإنسان لا يمكن فصلها عن المؤثرات التي تتحكم فيه، وأن ما يصدر عن هذا الإنسان يشترك في تجلية جوانبه وفهمه، جملةٌ من العلوم الإنسانية أهمها ثلاثة : علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس(٢٥). وقد اطلق مصطلح العلوم الإنسانية على العلوم التي ارتبط موضوعها بواقع الإنسان، أي التي تتخذ من أحوال الناس النفسية والسلوكية وتجمعاتهم البشرية ومؤسساتهم الاجتماعية . فهي علوم تتناول الواقع الإنساني لغاية فهمه وتفسيره وتحديد ثوابت . وعلى هذا تكون العلوم الإنسانية علوما تتناول فاعليات الإنسان المختلفة الجوانب وتسعى إلى ضبط طبيعتها وتحديد عناصرها وتجلية دلالاتها ومقاصدها المختلفة . وعلى هذا الاساس فإن العلوم الانسانية "هي العلوم التي تتناول كافة الأنشطة المتعلقة بالإنسان من قبيل الاقتصاد والفلسفة والسياسة والقانون وعلم الاجتماع والانثربولوجيا وعلم النفس وعلم الجريمة، ولتبسيط الأمر أكثر تعد العلوم الإنسانية أو الاجتماعية هي النظير المقابل للعلوم الطبيعية" (٢٦). إن أول ظهور للعلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر كان محاولة للتخلص من شمولية الفلسفة لكل تلك العلوم، ولذلك اختصت العلوم الإنسانية بتناول دراسة الذات الإنسانية وأنشطتها في صورها المختلفة، ويتم ذلك عبر عدة علوم مكونة للعلوم الإنسانية، لذلك تُعرف دراسات الذات الإنسانية بأنها مجموعة علوم إنسانية لا علم واحد . إن ظهور العلوم الإنسانية ارتبط علميًّا ومنهجيًّا بعصر الأنوار الأوروبية ومع النزعة الإنسانية التي واكبت هذا العصر، والتي بدأت تهتم بموضوع الإنسان كظاهرة تدرس مثل بقية الظواهر المادية التي تدرس داخل العلوم التجريبية. ويرى الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو إن العلوم الإنسانية لم تتوارث تراثاً واضح المعالم ؛ لأنها كانت منطوية تحت الفلسفة، ومع بداية القرن الثامن عشر بدأت هذه العلوم تفترض فكرة وجود الإنسان كذات قابلة للدراسة والبحث. أما «كلود ليفي ستراوس» فيرى أن العلوم الإنسانية تأخرت كثيراً عن العلوم التجريبية ولكن في القرن الماضي _ يقصد القرن التاسع عشر _ فإن الوضع تغير كثيراً نتيجة تطور العلوم التجريبية في مناهجها، وهذا الوضع الجديد استغلته العلوم الإنسانية لتجعل من ذاتها منفعة ومصلحة كبرى تحاول بذلك حل مشاكل الإنسان. أما جان بياجي فقد عدَ تطور العلوم الإنسانية جاء نتيجة حتمية لانفصالها عن الفلسفة، وبذلك حاولت حل مجموعة من الإشكاليات بمناهج تصدر من طبيعة موضوعاتها ووظفتها من العلوم التجريبية . وحاول (بياجي) تتبع مسار تطور العلوم الإنسانية في جميع مساراتها، مؤكدا أن العامل الأساسي للتطور العلمي للعلوم الإنسانية وبالخصوص علم النفس وعلم الاجتماع هو انفصال هذه العلوم عن الجذع المشترك للفلسفة، خاصة في فترة تطور الفلسفة الغربية الحديثة التي أعادت تشكيل النظام المعرفي لكل العلوم (٢٧).

ثانيا : تأثير المنهج العلمي في العلوم الانسانية (النقد الحديث انموذجا)...

وقد تأثرت الدراسات والأبحاث في مجالات العلوم الإنسانية بالمنهج العلمي بمعناه الاصطلاحي منذ أن ظهر في القرن السابع عشر الميلادي على يد مجموعة من الرواد من أمثال فرنسيس بيكون و ديكارت و كانت، بعدما تحررت البشرية من سيطرة مؤلفات أرسطو الفلسفية والعلمية التي أثرت عليها خلال قرون طويلة [٢٨]. وفي بدايات القرن العشرين سيبدأ تأثر النقد العربي بالمناهج الغربية في الدراسات الأدبية التي استفادت من الطفرة التي عرفتها العلوم الحديثة، بفضل تطور المنهج العلمي ، حيث أصبح المنهج النقدي يعتمد على التصور النظري والتحليل النصي التطبيقي . ويعني هذا أن الناقد صار يحدد مجموعة من النظريات النقدية والأدبية ومنطلقاتها الفلسفية والإبستمولوجية ويختزلها في فرضيات ومعطيات أو مسلمات، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التأكد من تلك التصورات النظرية عن طريق التحليل النصي والتطبيق الإجرائي ليستخلص مجموعة من النتائج والخلاصات التركيبية، بعدما كان النقد عبارة عن أحكام انطباعية وذوقية وموازنات ذات أحكام تأثرية مبنية على الاستنتاجات الذاتية.

وقبل الوقوف على المناهج النقدية في دراسة الأدب و معرفة مدى تأثرها بالمنهج العلمي، لابد من توضيح طبيعة العلاقة بين الدراسة الادبية والنقدية، وبين فروع المعرفة الانسانية المتصلة بهما، وعلى الشكل الاتي [٢٩]:

١- الفلسفة: الفلسفة لا تعطينا رأيا خاصا في عمل بعينه لكنها تبين طبيعة الأدب، و مبادئه، و أساليبه، والآراء، والأشكال والوظائف، والتعبير الجمالي، ومن ثم فقد ابتدع الفلاسفة ما يسمى (فلسفة الأدب) ووضعوا أسس (نظرية الأدب) بوصفهما شكلا من أشكال المعرفة، وطوروا (علم الأدب)، باستعمال المناهج الشبيهة بمناهج العلوم الفيزيائية، والطبيعية [٣٠].

٢- التاريخ: يتكون التاريخ من " وقائع حدثت في الزمان الذي من أبرز خصائصه الاتجاه نحو الأمام دون الرجوع إلى الخلف أو التكرار، ومهمة المؤرخ أن يقوم بوظيفة مضادة لفعل التاريخ في محاولة لاسترداد ما كان في الزمان، لاستعادة ما جرت عليه الأحداث بطريقة عقلية بناء على ما خلفه من وقائع، وتكوين صورة كلية عن الماضي على أفضل وجه متيسر"[٣١]. أما (تاريخ الأدب) فقد عرف بأنه " تفسير للوقائع التي أثرت في تكوين الأدب على امتداد القرون" [٣٢]، وهو ينظر إلى الأدب من خلال العصور والشعوب والأنواع والمدارس، ويميل إلى دراسة الظواهر الأدبية بوصفها تقدما إنسانيا تجريديا، ولا يبحث في العمل الشخصي بكونه نشاطا فرديا له من المميزات الفنية والجمالية ما يجعله متفردا عمن عايشوه، وتمثل الأعمال الخالدة العمود الفقري لتاريخ الأدب ؛ لكونها تعد مادة تاريخية نالت رضا المتخصصين الذين عاصروها أو ارتبطت بأحداث تاريخية هامة أثرت في الذاكرة الجماعية [٣٣].

٣- علم الاجتماع: يعرف علم الاجتماع بأنه "دراسة الحياة الاجتماعية للبشر، سواء بشكل مجموعات، أم مجتمعات، وقد عرّفَ أحياناً بأنه دراسة التفاعلات الاجتماعية"[٣٤] أو بأنه: "علم دراسة الإنسان والمجتمع دراسة علمية، تعتمد على المنهج العلمي، وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث"[٣٥] . وانطلاقا من هذا التعريف فإن علم الاجتماع يتداخل مع باقي العلوم الإنسانية إلا أنه يختلف عنها في الوقت ذاته، لان العلوم الأخرى تعنى بدراسة جانب من جوانب الإنسان والمجتمع وما يحيط بهما، في حين يدرس علم الاجتماع المجتمع ككل في ثباته وتغيره، ويدرس الإنسان من خلال علاقته بالمجتمع[٣٦]. ومن هنا فإن الأدب بوصفه إبداع إنساني يدخل في نطاق اهتمام علم الاجتماع، فمثلما نجد ما يسمى في الدراسات التاريخية (علم التاريخ الأدبي) نجد في الدراسات الاجتماعية (علم الاجتماع الأدبي)[٣٧]، وهذان العلمان يتحركان في الحقل نفسه، ذلك أن مجال علم الاجتماع هو مؤشرات الأحداث المتداخلة بين جميع الأفراد الذين يسهمون في الحياة الأدبية، بشكل مباشر أو غير مباشر، فغايته الحياة الأدبية وليس الأدب، حيث يهتم بمكانة الأدب في المجتمع، وعلاقة الأدب بباقي الفنون، واستهلاك الأدب مثل نسبة القراءة، ومنافسة وسائل التسلية لها ، والكتب التي مارست نفوذها على المجتمع. ثم نظام الحياة الأدبية، ويندرج ضمنه حجم النشاط الأدبي و نوعيته، والمؤسسات التي تتدخل فيه كالجامعات والمجامع العلمية واللغوية والمسابقات الأدبية والنقد والصحافة. وكذلك التأثيرات على الحياة الأدبية و وظيفة الأدب الاجتماعية، ومنه اشتراك الإبداعات الأدبية في بلورة الوعي والسلوك الاجتماعيين [٣٨].

٤- علم النفس : هو دراسة الذات كما تكشف عن نفسها في الأداء والعمل والنشاط أي السلوك، و من ثم يمكن تعريف علم النفس بأنه " العلم الذي يدرس سلوك الإنسان " [٣٩]، أي يصفه ويحاول تفسيره، ويقصد بالسلوك كل ما تصدر عن الفرد من استجابات مختلفة إزاء موقف يواجه أو مشكلة يحلها، أو خطر يهدده، أو قرار يتخذه، أو مشروع يخطط له، أو درس يحفظه، أو مقالة يكتبها، أو آلة يصلحها، أو مسابقة يعمل على الفوز فيها، أو لوحة فنية يتأملها، أو أزمة نفسية يكابدها، يسلك علم النفس سبيل المنهج العلمي المتمثل في الفهم والتنبؤ والضبط [٤٠].

وقد ارتبطت الدراسات النفسية بالنقد الأدبي منذ القدم، إذ نجها مع أفلاطون في مدينته الفاضة، يتحدث عن أثر الشعراء القيم والحياة، كما نلاحظها عند أرسطو في (نظرية التطهير) وهي تربط الإبداع الأدبي بوظائفه النفسية، وفي النقد العربي نجد كثيرا من الربط بين الشعر وبين بواعثه وأهدافه و وظائفه النفسية لدى المبدع و المتلقي [٤١]. وفي العصر الحديث نجد سيجموند فرويد(SigmundFreud ١٨٥٦ – ت ١٩٣٩م)[٤٢] في نهاية القرن التسع عشر يستعين بدراسة ظواهر الإبداع الأدبي والفني في وضع الأسس المنهجية لعلم التحليل النفسي الحديث بوصفها تجليات للظواهر النفسية [٤٣].

٥- علم اللغة: وهو دراسة اللغة على نحو علمي موضوعي و ليس انطباعي وذاتي . ويدرس علم اللغة الحديث بنية اللغة من جانب الأصوات وأعضاء النطق وعملية الكلام، والكلمات و وسائل تكوينها، والوحدات الصرفية، والتغييرات التي تطرأ عليها لاعتبارات صوتية او بنيوية. ثم الجملة و كيفية بنائها، و هو مجال النحاة في علم النحو والبلاغيين في علم البلاغة . كما يدرس علم اللغة دلالات الكلمات والجمل وظائفها التواصلية وغيرها من الخصائص بوصفها وسيلة تعبيرية تواصلية [٤٤]. وعلى وفق مستويات الدراسة اللغوية، يتداخل علم اللغة مع الدراسات الأدبية في أن أي عمل أدبي يقوم على اللغة، والشرط الجوهري لنقده هو تمكنه من اللغة التي كتب بها، ومن ثم فإن كل الدراسات الدقيقة التي يقوم بها علماء اللغة لتحديد طبيعة اللغة سوف تساعد في دراسة الأدب، لكنها لا تنتج نقدا أدبيا، لأن ما يهم اللغويين هو وصف القاعدة، وإبراز الخصائص المشتركة للغة وليس القيمة الجمالية التي يتعقبها الناقد.

٦- علم الجمال : يعرف علم الجمال بأنه " علم يبحث في شروط الجمال، ومقاييسه، ونظرياته، وفي الذوق الفني، وفي احكام القيم المتعلقة بالآثار الفنية "[٤٥] وتبرز العلاقة بين علم الجمال والنقد الادبي في كون العمل الأدبي الذي هو مجال الدراسات النقدية " عبارة عن ثلاث دوائر متداخلة، فالدائرة الأولى وهي الأكبر تشمل العناصر التي تجعل العمل الأدبي عملا فنيا، والدائرة الثانية الأوسط وتضم العناصر التي تجعل العمل الأدبي الفني يتحدد فيصبح قصة أو شعرا أو رواية أو غيرها، ثم الدائرة الثالثة الأصغر وتضم العناصر الأسلوبية والخصائص الفنية المميزة للأديب "[٤٦]. ويبرز مجال اشتغال كل من عالم الجمال والناقد وفق هذه الدوائر " فالدائرة الأولى ساحة عالم الجمال، وهي تفيد الناقد في كونها تبصره منذ البداية بأن العمل الذي سينقده هو عمل فني أصلا، والدائرة الصغرى هي من اختصاص الناقد، ففيها يظهر عمله الرئيسي، وذلك من خلال إبرازه للخصائص المميزة لأسلوب الكاتب و طريقة بنائه لعمله الأدبي والوسائل الفنية التي لجأ إليها، أما الدائرة الوسطى فهي محل اختصاص الطرفين معا، فعالم الجمال يحدد العناصر العامة التي تميز كل نوع أدبي عن الآخر والناقد يصور كيف ترجم الأديب هذه العناصر الفنية وجسدها في عمله "[٤٧]. إن هذه العلوم حين تدرس الأدب مستقلة فإنها تتعامل معه وفق أهداف نفعية، إذ توظف النصوص والكتابات الأدبية من أجل الاستدلال والبرهنة على قضايا ومواقف ومباحث تهم هذا العلم أو ذاك، وهذا يختلف حينما يوظف النقد الأدبي هذه العلوم ومنهجياتها من أجل فهم العمل الأدبي، والبحث عن مكامن القوة والضعف فيه، فتتحول إلى مناهج للدراسات الأدبية والنقدية .

علمية مناهج النقد الأدبي الحديث...

إذا كان هناك ما يُسمَّى بعلمية النقد الأدبي فمن البديهي أن نسأل : بماذا صار النقد علماً ؟ وواضح أنه لكي يكون النقد علميا يجب أن نكرس له أكبر قدر من المنهجية . والحقيقة أننا ومهما كان ادعاؤنا

بأن النقد علم، يجب أن نتوقف عند إمكانية أن يكون المنهج النقدي هو سبب علمية النقد، والإشكالية يجب أن تبدأ بالتساؤل : ما المنهج النقدي ؟ لقد حددَ صلاح فضل مفهوم المنهج النقدي وفق ثلاث مستويات منهجية قائلا : " هو الطريقة التي تتم بها معالجة القضايا الأدبية، والنظر في مظاهر الإبداع الأدبي بأشكاله وتحليلها . وهو بهذا المفهوم يتحرك طبقا لمنظومة خاصة تتألف من مستويات مختلفة لعل من اهمها:(مستوى النظرية الأدبية) فكل منهج لابد له من نظرية في الادب، ونظرية الادب هذه تطرح اسئلة جوهرية، وتحاول اقامة بناء متكامل للإجابة عن هذه التساؤلات، واهم هذه الاسئلة هو، ما الادب ؟ وما علاقة الادب بالمجتمع والحياة والمبدع والمتلقي ؟ الثاني : مجموعة السبل والإجراءات التي يتخذها أصحاب أية نظرية لتحليل الأعمال الأدبية، والبرهنة على توافق القوانين الداخلية والخارجية لها، وهي التي يتمثل فيها (المنهج) المصاحب للنظرية الادبية، الثالث : مستوى (الجهاز الاصطلاحي) المتداول في إطار النظرية "[٤٨].

إن الحديث حول علمية المناهج النقدية يضعنا أمام آراء مختلفة و متضاربة أحيانا، فمن الدارسين من يؤمن بإمكانية إخضاع الدراسات الأدبية للمنهج العلمي ومنهم من يرى أن طبيعة الأدب تستعصي على ذلك، ومنهم أستاذ فلسفة العلوم هربرت دينجل (HerbertDingle ١٩٧٨م)[٤٩] الذي أخضع المناهج العلمية في دراسة الأدب لتحليل علمي منطقي، وقارن بينها وبين مناهج العلوم الحقة، فتوصل إلى إنه ليس هناك علم للأدب بالمعنى الدقيق لأن مع القيمة الجمالية لا توجد معرفة دقيقة [٥٠]. فيما ذهب بعض الدارسين ولاسيما اصحاب المنهج التاريخي من مثل : سانت بيف (CharlesAugustinSainte-Beuve ١٨٠٤ ــ ١٨٦٩)[٥١] وتين(Tin,HippolyteAdolphe ١٨٢٨- ١٨٩٣)[٥٢]، وبرونتيير (FerdinandBrunetière ١٨٤٩ ــ ١٩٠٦)[٥٣]، إلى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على الدرس النقدي الحديث، لاسيما نظرية داروين في النشوء والارتقاء مع برونتيير، بينما حاول سانت بيف تأسيس تاريخ طبيعي للأدب، بينما كان تين ساعيا الى خلق منهج نقدي حديث يتسم بماديته الطبيعية الجبرية المطلقة [٥٤]. كما كان الناقد إ.أ.ريتشاردز (إيفور آرمسترونغ ريتشاردزI.A.Richards١٨٩٣- ١٩٧٩) ،[٥٥] من اكثر النقاد حفاوة بالعلمية في الدراسة النقدية، " لقد حاول رتشاردز ان يجعل من النقد علما تطبيقيا "[٥٦]. إن مناهج الدراسة النقدية للأدب تتعدد وتتنوع حسب مسارين اثنين، أحدهما زمني كمي، والآخر مجالي نوعي، فالأول ينحو منحى زمنيا يواكب التراكم العلمي الذي يشهده كل علم على حدة ويؤثر في المنهج النقدي الذي يتَبعه في الدراسة، والثاني يتعلق بتنوع العلوم واختلاف مشاربها وحقول اشتغالها، والتي يستمد الدارسون منها نتائجها ومنهجياتها في فهم العمل الأدبي وتفسيره وإبراز دوافعه و تأثيراته و كيفية بنائه و وظائفه وغيرها من مجالات اهتمامات النقاد وباحثي الأدب. ومن ثم فقد تعددت مناهج الدراسات الأدبية و تفرعت تقسيماتها، وذلك حسب تنوع الدارسين و اختلاف مرجعياتهم الثقافية والعلمية [٥٧]،

وسنحاول أن نقف مع المنهج التاريخي، بوصفه المنهج الاكثر انبهارا وتطبيقا، لمبادئ المنهج العلمي، إذ نحاول أن نبحث عن مرجعيتها العلمية وملامح المنهج العلمي فيها، معتمدين في ذلك على الأسس والقواعد التي تشكل منها كل منهج، ومدى افادتها من النظريات العلمية النابعة من المنهج العلمي التجريبي .

علمية المنهج التاريخي ...

يعد المنهج التاريخي أول المناهج النقدية في العصر الحديث، وذلك لارتباطه بالتطور الاساسي للفكر الإنساني، وبروز الوعي التاريخي الذي يمثل السمة الأساسية الفارقة بين العصر الحديث والعصر القديم [٥٨]. لقد نمت حركة البحث العلمي و الأكاديمي في الأوساط الثقافية و الجامعية، وحاولت رصد البيانات عن العصور السابقة، فكان هذا الرصد يمثل الترجمة العلمية للنزعة التاريخية في دراسة الأدب ونقده، فتم التأكيد على ضرورة الاهتمام بالتوثيق، والاعتماد على العقل والبرهان، والتعامل مع النصوص من درجة نسبتها إلى أصحابها، وعلاقة التأثير و التأثر بين الأدباء، وعلاقة الآداب المحلية بالآداب العالمية، وتمثل التاريخ كسلسلة من الحلقات تخضع لقوانين التطور والارتقاء، وتمثل المكان بوصفه إطارا تنتظم فيه علاقات الإبداع، أي التنظيم العلمي للمادة الأدبية، ودراستها بتحديد مصادرها، و توثيق نصوصها، وتحليل مخطوطاتها والكشف عن علاقاتها، وعوامل التأثير والتأثر فيما بينها [٥٩]. ان تطور العلوم التجريبية في اوربا كانت له نتائجه العلمية الواضحة على المجتمع، مما جعل مجموعة من النقاد " تدعو ان يصبح النقد عملا موضوعيا، لا أثر فيه لشخصية الناقد، ولا لأي احساس له [٦٠]. بمعنى اخر ان يكون عمل الناقد علميا خالصا، مثلما يتمثل عمل عالم الطبيعة ازاء ظاهرة طبيعية، يتوقف دوره على الوصف والتحليل، ولا يصدر اي حكم تجاهها، إلا من خلال طبيعتها البنيوية الذاتية، والمؤثرات التي تحكم صيرورتها وتكوينها التاريخي . ومن ابرز امثلة ذلك ما قام به الناقد الفرنسي سانت بيف الذي دعا الى دراسة الادباء " حسب احوال طبيعتهم، مبتدئا بخصائصهم الجسمانية، ومتعقبا لهم في حياتهم المادية والعقلية والخلقية، بمعنى دراستهم دراسة عضوية نفسية اجتماعية، كما تدرس الثمرة في شجرتها لنتبين خصائصها "[٦١]. لقد سعى بيف من منهجيته التجريبية هذه الى (تأسيس تاريخ طبيعي للأدب)، ينقسم فيه الادباء الى انماط، وينتمي كل منهم الى فصيلة بعينها، لها معالمها وميزاتها وخصائصها [٦٢]. لكن سانت بيف نفسه لم يكن يؤمن تماما بإمكانية تحويل النقد الادبي الى علم يماثل علم النبات او علم الحيوان " لان للإنسان ما يسمى حرية الارادة، وهذه الحرية تستدعي وجود الكثير من التعقيد "[٦٣] في تركيبته البشرية، مما يستحيل معها التعامل مع انتاجه الادبي بوصفه علما طبيعيا، لان فيه من شخصه وتكوينه الانساني المتميز عن باقي الكائنات الحية والطبيعية . إلا إن الناقد الفرنسي الاخر واعني هيبلوت تين، آمن بشكل مطلق بعلمية النقد الادبي، وامكانية تحويله الى دراسة تجريبية طبيعية . " لقد كان تين اكثر انبهارا

بقوانين العلوم الطبيعية وحتميتها الصارمة . اذ كان يؤمن بان الانسان ليس سوى حيوان من نوع اسمى، ينتج الادب والاشعار والفلسفات بطريقة طبيعية تشبه تماما افراز دودة القز خيوط الحرير "[٦٤]. لقد اعتقد تين بأن الاديب فرد يعيش داخل منظومة من القوانين الطبيعية ويخضع لجبريتها، وينشئ اعماله واثاره داخلها، مما يجعله جزءا من تكوينها توجه مساره وتلغي حريته الفردية ." فاذا كانت الطبيعة لا تعرف الخصائص، ولا القوانين الفردية، وانما تعرف القوانين العامة الملزمة، فكذلك ينبغي ان تكون قوانين الأدب، قوانين تقوم على الحتمية الشديدة، وتطبق على جميع الافراد دون استثناء "[٦٥]. وعلى هذا الأساس يمكن تسمية منهجه التاريخي ب (الحتمية الجبرية المطلقة)، التي تقوم على ثلاثة قوانين هي : ١- الجنس ٢ – البيئة ٣ – الزمان . يقول تين في معرض حديثه عن منهجه النقدي : " يقتضي المنهج الحديث الذي احرص على اتباعه، اعتبار الاثار الانسانية بنوع خاص، كوقائع ونتاجات، يجب ان تحدد سماتها، وتبحث اسبابها . ان العلم حسب هذا المفهوم، لا يدين ولا يعفو، انه يتحرى ويشرح، انه يعمل مثل عالم النبات الذي يدرس باهتمام متساو كل الاشجار، وهذا المنهج نفسه لا يطبق على النبات فقط وإنما على المؤلفات الانسانية " [٦٦]. إن الادب عند تين كيمياء وميكانيك، فالأفكار والعواطف مثل الكبريت والسكر، مواد يمكن تحليلها ودراسة مكوناتها، والانسان كذلك اذا عرفنا جنسه، وسطه، الجو الذي نما فيه، والعناصر التي شكلت كيانه نفسيا وعضويا، امكننا هندسيا بناء فكره وعواطفه، والجوهر الاساسي المكون له، الذي تنبثق منه صفاته الانسانية والادبية، ومن ثم امكننا تحليل ادبه بشكل تجريبي طبيعي. لقد استفاد المنهج التاريخي في النقد من منظومة مصطلحات علم التاريخ ومجالاته التي تتحدث عن العصر و البيئة والجنس، كما إنه يستعير بعضا من مصطلحاته من علم الأحياء، المتعلقة بالنشوء والتطور، والتأثير والتأثر، فضلا عن المصطلحات التي اختمرت عبر التاريخ واستقرت في الوعي الثقافي لأي مجتمع انساني ينتمي اليه الاديب او الناقد.

خاتمة واستنتاجات ...

يتبين من خلال ما سبق دور المنهج العلمي في تطور الدراسات الانسانية، لاسيما النقد الحديث . وقد توضح هذا الاثر بطرق البحث وأساليبه وتقنيات البحث والدراسة، التي تهدف إلى الفهم والتنبؤ والضبط والتحكم، كما تبين هذا التأثر بعدد من العلوم التي عدت مرجعيات أساسية في ظهور معظم المناهج الحديثة، التي ما كانت لتبزغ لولا هذا الارتباط العضوي بينها وبين هذه العلوم .

إن الأسس المنهجية التي توافق عليها العلماء والفلاسفة والدارسون منذ ظهور (المنهج العلمي) بمفهومه الحديث على يد مجموعة من الرواد مثل : فرنسيس بيكون وديكارت وكانت، كان لها الاثر الاكبر في حدوث ذلك الارتباط العضوي بين المنهج العلمي، والتطور الذي جرى مع العلوم الانسانية.

إن تحرر الفكر الغربي من سيطرة مؤلفات أرسطو الفلسفية والعلمية، مكن المناهج النقدية من الاستفادة من الطفرة العلمية التي شهدتها العلوم الحديثة، فأصبحت تعتمد على التصور النظري والتحليل التطبيقي للنصوص .

ومن ثمَ صار النقاد يحددون النظريات النقدية والأدبية ومنطلقاتها الفلسفية والابستيمولوجية، ويختزلونها في فرضيات ومعطيات ومسلمات، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى التأكد من هذه التصورات النظرية من خلال التحليل النصي التطبيقي للتأكد من النتائج و الخلاصات التركيبية.

إن العلاقة بين العلمي والانساني، تكاد تقترب من التمازج، في ضوء التطور الهائل الحادث في العلوم الانسانية، واقترابها من العلوم التجريبية الى حد كبير .

إن الظاهرة الانسانية يمكن ان تدرس على وفق منهج بحثي يجمع بين التفسير الذي يختص بالعلوم الطبيعية، والفهم الخاص بالعلوم الانسانية، من اجل ان تقترب العلوم الانسانية من العلمية في منهجيتها، ونتائجها البحثية .

وهنا برز اسم العالم الاجتماعي دوركهايم، الذي يعد أول من حاول تحويل الظاهرة الانسانية الى شيء يمكن دراسته، مما يعني تحويل دراسته نحو العلمية والتجريبية .

ويمكن ان نعد علوم اللغة، ولاسيما النقد الحديث، من اكثر المعارف الانسانية تأثرا بالمنهج العلمي، خصوصا بعد انتشار محاضرات دي سوسير، التي نقلت الدراسة اللغوية من التاريخية الى الوصفية، ومن ثم اثرت في كل المناهج النقدية التي تشكلت بعدها .

ويعد المنهج التاريخي من اكثر المناهج النقدية واقدمها تأثرا بالعلوم الطبيعية وطرق البحث التجريبية . وقد توضح ذلك بشكل جلي فيما وضعه سانت بيف وتين وبرونتيير من منهجية بحث تاريخية، تأثرت بشكل واضح بمنهجية البحث التجريبية في العلوم الطبيعية، ولاسيما تأثرها بنظرية داروين في

النشوء والارتقاء، ومن ثم ظهور مصطلحات من مثل : التطور، التغيير، النشأة، التحول، وغيرها من مصطلحات اقتبست بشكل او خر من نظرية النشوء والارتقاء لداروين .

اخيرا أسال الله أن يكون هذا البحث في ميزان حسناتي، والحمد لله رب العالمين في الأولى والأخرة، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد، صلاة دائمة باقية الى يوم الدين .

مراجع البحث وهوامشه ...

(١) – فرانسيس بيكون Francis Bacon (و ١٥٦١ – ت ١٦٢٦م)، فيلسوف و اديب إنجليزي، مؤسس النزعة التجريبية الحديثة في العلم و الفلسفة. ألف كتاب (الوسيلة الجديدة) Novus Organism، وعارض فيه منطق أرسطو و منهجه في القياس. اسس دعائم المنهج الاستقرائي الحديث و نادى بالرجوع للحقائق الطبيعية من غير محاولة استباقها بالعقل او الخيال. ولهذا عرف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على (الملاحظة والتجريب). المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٢) – رينيه ديكارتْ René Descartes (و١٥٩٦ – ت١٦٥٠م)، فيلسوف ورياضيٌّ وعالم فرنسي كثيرًا ما يُلَقَّب بأَبي الفلسفة الحديثة، وقد اخترع ديكارت الهندسة التَّحليليَّة، وكان أول فيلسوف وصف الكون المادّيّ من حيث المادة والحركة، كما كان رائدًا في محاولة صياغة قوانين عامَّة بسيطة في الحركة تَحْكُم جميع التَّغيُّرات الطَّبيعيَّة. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٣)– تشارلز روبرت داروين Charles Robert Darwin (و ١٨٠٩– ت ١٨٨٢ م)، عالم حيوان وتاريخ طبيعي إنجليزي، صاحب نظرية التطور Evolution Theory التي تقول إن كل انواع المخلوقات الحية اتت من اصل واحد، وقد اشتهر بنظرية التطور هذه، ومبدأ الانتخاب الطبيعي، حول نشأة الإنسان. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٤) – فردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure (و١٨٥٧ – ت ١٩١٣م) عالم لغويات سويسري يعتبر الأب والمؤسس لمدرسة البنيوية في اللسانيات في القرن العشرين، وهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث حيث اتجه بتفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، وكانت اللغات تدرس دراسة تاريخية، وكان السبب في هذا التحول الخطير في دراسة اللغة هو اكتشاف اللغة السنسكريتية. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٥) – ينظر : الموضوعية في العلوم الانسانية، د. صلاح قنصوه، دار التنوير، مصر، ت ٢٠٠٧م، ص : ٤٠ الى ٥٠ .

(٦) – المصدر نفسه، ص : ٦٩– ٧٥.

(٧) – مشكلة العلوم الانسانية تقنينها وامكانية حلها، د. يمنى طريف الخولي، مؤسسة هنداوي، مصر، ت ٢٠١٤م، ص : ٦٦.

(٨) – إميل دوركايم Emile Durkheim (و١٨٥٨– ت ١٩١٧) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي. يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معا. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٩) – كلود ليفي ستروس (بالفرنسية: Claude Lévi-Strauss و ١٩٠٨ – ت ٢٠٠٩)، عالم اجتماع فرنسي، بدأ ليفي ستروس تكوينه بدراسة الفلسفة غير أن هذه النظريات المجردة الاعتباطية البعيدة عن الواقع الاجتماعي ما لبثت أن خيبت آماله، فسافر إلى البرازيل حيث درّس علم الاجتماع واكتشف أعمال علماء الإنسان الأميركيين، فكان لأعمال ليفي ستروس وتعليمه أثر بليغ في مجال علم الإنسان والتحقيق الإثنولوجي الميداني. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(١٠) – الموضوعية في العلوم الانسانية، ص : ٨٣–٨٤ و مقالات في الاناسة، كلود ليفي شتراوس، تر: حسن قبيسي، دار التنوير، ت ٢٠٠٨م، ص : ١١٣.

(١١) – ينظر : قواعد المنهج العلمي، اميل دوركايم، تر: د. محمود قاسم و د . السيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ت ١٩٨٨م، ص : ٧٠ – ٧٣ .

(١٢) – جان بياجيه (Jean Piaget و١٨٩٦ – ت ١٩٨٠)، عالم نفس وفيلسوف سويسري وقد طور نظرية التطور المعرفي عند الأطفال، صاحب نظرية الابستمولوجيا التكوينية، يعتبر بياجيه رائد المدرسة البنائية في علم النفس. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(١٣) – ينظر : مشكلة العلوم الانسانية تقنينها وامكانية حلها، ص : ٦١–٦٢ و مقالات في الاناسة، ص : ١٢٣ – ١٢٨.

(١٤) – ينظر : مشكلة العلوم الانسانية تقنينها وامكانية حلها، ص : ٥١ – ٥٢.

(١٥) – قواعد المنهج العلمي، ص : ٩٠– ٩١.

(١٦) – الموضوعية في العلوم الانسانية، ص : ٣٩٣ – ٣٩٥،

(١٧) – ينظر : الصحاح ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣ هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٩م، ج١/ ص:٣٠٤ – ٣٠٥ .

(١٨) – مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، دار النهضة، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٥.

(١٩) – مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق : شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ت : ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ج ٣٠ / ٣٥٥.

(٢٠) – مناهج النقد المعاصر، د صلاح فضل ، ميريت للنشر، القاهرة، ط ١، ت ٢٠٠٢م، ص ٩.

(٢١) – البحث العلمي : مفهومه ــ أدواته ــ أساليبه، ذوقان عبيدات واخرون، دار الفكــر، الاردن، ت ١٩٨٩، ص ١٠.

(٢٢) – ينظر: المرجع نفسه، ص : ٢٠– ٢٢.

(٢٣) – ينظر : مناهج النقد المعاصر، ص : ١٠.

(٢٤) – مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي و الفكر الحديث، د. عبد الــرحمن العيســوي، دار الراتب الجامعية، (ص/١٤)

(٢٥) – ينظر : قواعد المنهج العلمي، ص : ٥٠ – ٥٢.

(٢٦) – مشكلة العلوم الانسانية تقنينها وامكانية حلها، ص : ١٢ و المعجــم الفلســفي، د . جميــل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ت ١٩٨٢م، ج٢، ص : ١٠١.

(٢٧) – ينظر : الموضوعية في العلوم الانسانية، ص : ٤٠ الى ٤٦.

(٢٨) – الأدب وفنونه، د محمد مندور، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط ٥، ت ٢٠٠٦ م ، ص ١٢٨.

(٢٩) – ينظر : مناهج النقد الأدبي، إيريك أندرسون، ترجمة د . الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، ت ١٩٩١م، ص١١– ١٨.

(٣٠) – المصدر نفسه، ص : ١٧–١٨.

(٣١) – مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، ص : ١٧.

(٣٢) – مناهج النقد الأدبي، ص : ٢١.

(٣٣) – المصدر نفسه، ص : ٢١.

(٣٤) – الموسوعة الحرة، شبكة الانترنيت، مادة (علم الاجتماع) .

(٣٥) – اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، د. عبد الباسط عبد المعطي، عالم المعرفة، الكويــت، ت ١٩٨١ م، ص : ١٥.

(٣٦) – المصدر ذاته، ص : ١٥.

(٣٧) – مناهج النقد الأدبي، ص : ٣٤.

(٣٨) – المصدر ذاته، ص : ٢٤–٢٦.

(٣٩) – علم النفس العام، د. عبد الرحمن العيسوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ت ٢٠٠٠م، ص : ١٠.

(٤٠) – ينظر: المصدر نفسه، ص : ١١–١٢.

(٤١) – ينظر : النقد الادبي الحديث، قضاياه ومناهجه، د. صالح هويدي، منشورات جامعة الســابع من ابريل، ليبيا، ط ١، ت ، ص : ٨٠ – ٨١.

(٤٢) – سيغموند فرويد (Sigmund Freud ١٨٥٦ – ت ١٩٣٩م)، هو طبيب نمساوي من اصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر، يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي، وهو طبيب الأعصاب الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث.

(٤٣) – المصدر ذاته، ص : ٨٤ و ٨٨ .

(٤٤) – ينظر : علم اللغة العام، دي سوسور، تر : يوئيل يوسف عزيز، دار افاق عربية، بغداد، ت ١٩٨٥م، ص : ٢٤–٢٥.

(٤٥) – المعجم الفلسفي، ج١، ٤٠٨.

(٤٦) – جدل النقد وعلم الجمال ، مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشروالتوزيع، القاهرة، ط ١، ت ١٩٩٧م، ص : ١٧ــ ١٨.

(٤٧) – المصدر نفسه، ص : ١٩.

(٤٨) – مناهج النقد المعاصر، ص : ١٠– ١١.

(٤٩) – هربرت الوادي المشجر (و١٨٩٠– ت ١٩٧٨م) كان فيزيائي إنجليزي و فيلسوف طبيعي، شغل منصب رئيس الجمعية الفلكية الملكية من ١٩٥١ إلى ١٩٥٣. ومن المعروف انه عارض النظرية النسبية ل (ألبرت أينشتاين) .

(٥٠) – ينظر : مناهج النقد الأدبي، ص : ٤٧.

(٥١) – شارل أوغستان سانت ـــ بوف (Charles Augustin Sainte-Beuve١٨٠٤ ـــ ت١٨٦٩م)، كاتب وناقد فرنسي، كتب العديد من الدراسات التي كان لها تأثير مهم في تاريخ النقد الأدبي، ودرس البلاغة والفلسفة، ثم بدأ بدراسة الطب لكنه لم ينهِها. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٥٢) – تَينْ، هيبوليت أدُولف (Tin,HippolyteAdolphe ١٨٢٨– ١٨٩٣م). مفكر وناقد فرنسي. أسْهَم تطبيقه للفلسفة الحتمية على الفن والأدب كثيرًا في تشكيل المواقف الفكرية الفرنسية في القرن التاسع عشر. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٥٣) – برونتيير Ferdinand Brunetière (١٨٤٩ ــ ١٩٠٦)، ناقد أدبي فرنسي. عارض أصحاب المذهب الطبيعي، وضع نظرية عن تطور الأشكال الأدبية مماثلة لنظرية تطور الأنواع، أفصح عن علمه الغزير ومقدرته الفائقة في كتابة "تاريخ الأدب الفرنسي) (١٨٩٧). المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٥٤) – ينظر : النقد الادبي الحديث، قضاياه ومناهجه، ص : ٧٤ ونشوء النقد الادبي وتطوره، د. رامز الحوراني، جامعة سبها، ليبيا، ط ١، ت ١٩٩٦م، ج ٢، ص : ٦٢ – ٦٣ .

(٥٥) – إيفور آرمسترونغ ريتشاردز (I. A. Richards ١٨٩٣ – ١٩٧٩) ، ناقد أدبي وعالم بلاغة، أثرت كتبه في توجهات النقد الجديد ككتاب "معنى المعنى" و "مبادئ النقد الأدبي" و "النقد العملي" و "فلسفة البلاغة". قاد مبدأ "النقد العملي إلى تطبيقات " القراءة الوثيقة" التي يعتقد أنها أسست لبدايات النقد الأدبي الحديث، يعتبر ريتشاردز أحد مؤسسي دراسات الأدب الإنجليزي المعاصرة. المصدر : (الموسوعة الحرة على الانترنيت).

(٥٦) – النقد الادبي ومدراسه الحديثة، ستانلي هايمن، تر : د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ت ١٩٥٨م، ج٢، ص : ١٢٢.

(٥٧) – ينظر في تنوع تصنيفات المناهج النقدية : مناهج النقد الأدبي، ص : ٩٤ الى ١٠١ .

(٥٨) – ينظر : مناهج النقد المعاصر، ص : ٢٤.

(٥٩) – المصدر نفسه، ص : ٢٦–٢٧.

(٦٠) – نشوء النقد الادبي وتطوره، ج٢، ص : ٥٧.

(٦١) – المصدر نفسه، ج٢، ص : ٥٨.

(٦٢) – ينظر : النقد الادبي الحديث، قضاياه ومناهجه، ص : ٧٣.

(٦٣) – نشوء النقد الادبي وتطوره، ج٢، ص : ٦١.

(٦٤) – التحليل الاجتماعي للأدب، السيد ياسين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ت ١٩٩٢م، ص :١٠٢.

(٦٥) – نشوء النقد الادبي وتطوره، ج٢، ص : ٦٢.

(٦٦) – النقد الادبي، كارلوني وفيللو، تر: كيتي سالم، مكتبة عويدات، بيروت – باريس، ط٢، ت ١٩٨٤م، ص : ٤٨–٤٩.